ما هو كتاب اللّه؟

حدّثه غريب بتاريخ الثلاثاء ٩ ذي الحجة ١٤٤٢

ما هو كتاب اللّه ؟

إذا سألت أي أحد من هذه الأمة هذا السؤال سيجبك غالبا بأن كتاب اللّه هو القرآن, فهل فعلا كتاب اللّه هو القرآن فقط؟

أم أن كتاب اللّه يعني شيئا أشمل من القرآن ؟

خلال هذه السطور سوف نحاول الإجابة على هذا السؤال إن شاء اللّه من خلال المحاور التالية:

- معنى كلمة كتاب في اللغة
- معنى كلمة كتاب في القرآن
- كلمة الكتاب إذا وردت معرفة بال العهدية ماذا يراد بها
  - القرآن تفصيل الكتاب
  - رسالة اللّه هي التي فيها تبيان كل شيء
  - رسالة اللّه هي التي فيها بيان ما اختلف فيه
- شبهات وردود
- المراجع

معنى كلمة كتاب في اللغة

قال الفراهيدي1

كتب: الكتب: خرز الشيء بسير, والكتبة: الخرزة التي ضم السير كلا وجهيها. والناقة إذا ظئرت

[على ولد غيرها]

كتب منخراها بخيط لئلا تشم البو والرأم. قال ذو الرمة:

[وفراء غرفية أثأى خوارزها]

... مشلشل ضيعته بينها الكتب

والكتب: الخرز بسيرين, قال:

لا تأمنن فزاريا خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيار

والكتاب والكتابة: مصدر كتبت والمكتب: المعلم. والكتاب: مجمع صبيانه.

والكتيبة من الخيل: جماعة مستحيزة. والكتبة: الاكتتاب في الفرض والرزق, واكتتب فلان, أي: كتب اسمه في الفرض. والكتبة: اكتتابك كتابا تكتبه وتنسخه.

معنى الكتاب في القرآن

وردت كلمة الكتاب ومشتقاتها في القرآن بمعاني عدة نذكر منها:

الحكم والفرض ومنه قول الحق سبحانه:

‹يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقونَ›2

ما كتب بين دفتين من حروف ومنه قوله سبحانه:

‹فَوَيلٌ لِلَّذينَ يَكتُبونَ الكِتابَ بِأَيديهِم ثُمَّ يَقولونَ هذا مِن عِندِ اللَّهِ لِيَشتَروا بِهِ ثَمَنًا قَليلًا فَوَيلٌ لَهُم مِمّا كَتَبَت أَيديهِم وَوَيلٌ لَهُم مِمّا يَكسِبونَ›3

ما أرسل الله به رسله من رسالات إلى أقوامهم, ومنه قوله سبحانه:

‹كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيّينَ مُبَشِّرينَ وَمُنذِرينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتابَ بِالحَقِّ لِيَحكُمَ بَينَ النّاسِ فيمَا اختَلَفوا فيهِ وَمَا اختَلَفَ فيهِ إِلَّا الَّذينَ أوتوهُ مِن بَعدِ ما جاءَتهُمُ البَيِّناتُ بَغيًا بَينَهُم فَهَدَى اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا لِمَا اختَلَفوا فيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذنِهِ وَاللَّهُ يَهدي مَن يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ›4

رسالة ومنه قوله سبحانه:

‹اذهَب بِكِتابي هذا فَأَلقِه إِلَيهِم ثُمَّ تَوَلَّ عَنهُم فَانظُر ماذا يَرجِعونَ›5

ومنه قوله سبحانه:

‹قُل يا أَهلَ الكِتابِ تَعالَوا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَينَنا وَبَينَكُم أَلّا نَعبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعضُنا بَعضًا أَربابًا مِن دونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقولُوا اشهَدوا بِأَنّا مُسلِمونَ›6

أي يا أصحاب الرسالة.

تلك هي أغلب معان كلمة الكتاب في القرآن ومشتقاتها.

كلمة الكتاب المعرفة بأل العهدية في القرآن

إذا وردت كلمة الكتاب معرفة بأل العهدية في القرآن فإنما يراد بها رسالة الله التي أرسل لعباده مع رسله, حيث أن كلمة الكتاب استخدمت للدلالة على جميع الكتب التي أنزل الله وذلك في قوله:

‹لَيسَ البِرَّ أَن تُوَلّوا وُجوهَكُم قِبَلَ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ وَلٰكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتابِ وَالنَّبِيّينَ وَآتَى المالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُربى وَاليَتامى وَالمَساكينَ وَابنَ السَّبيلِ وَالسّائِلينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالموفونَ بِعَهدِهِم إِذا عاهَدوا وَالصّابِرينَ فِي البَأساءِ وَالضَّرّاءِ وَحينَ البَأسِ أُولٰئِكَ الَّذينَ صَدَقوا وَأُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقونَ›7

كما وردت للدلالة على رسالة النبي الواحد, مثال ذلك قوله سبحانه:

<وَلَقَد آتَينا موسَى الكِتابَ وَقَفَّينا مِن بَعدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَينا عيسَى ابنَ مَريَمَ البَيِّناتِ وَأَيَّدناهُ بِروحِ القُدُسِ أَفَكُلَّما جاءَكُم رَسولٌ بِما لا تَهوى أَنفُسُكُمُ استَكبَرتُم فَفَريقًا كَذَّبتُم وَفَريقًا تَقتُلونَ>8

أي لقد آتينا موسى الرسالة.

ومنه قوله سبحانه:

<نَزَّلَ عَلَيكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ وَأَنزَلَ التَّوراةَ وَالإِنجيلَ>9

أي نزل عليك رسالته فقد علمنا من قبل أن الرسالة التي أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم هي القرآن والسنة, وليست القرآن فقط.

أي أن كتاب الله هو القرآن والسنة معا وليس القرآن فقط كما يتصور كثير من الناس, والأدلة على ذلك كثيرة منها أن السنة وحي مثلها مثل القرآن ولا فرق كما سبق وأوضحنا, ومنها أيضا:

القرآن تفصيل الكتاب

يظهر هذا في قوله سبحانه وتعالى:

<وَما كانَ هذَا القُرآنُ أَن يُفتَرى مِن دونِ اللَّهِ وَلكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ الكِتابِ لا رَيبَ فيهِ مِن رَبِّ العالَمينَ>10

إذا تأملت هذه الآية يتضح لك أن القرآن تفصيل الكتاب, مما يعني أن المراد بالكتاب شيء القرآن أتى يفصله.

هذا الشيء هو رسالة الله إلينا أي ما يريده منا, وهذا هو الذي نجده مفصلا في القرآن وفي السنة, فالقرآن يفصل جانبا كبيرا من الرسالة.

هذه الآية صريحة في بيان أن كلمة الكتاب إذا وردت معرفة بأل العهدية لا يراد بها القرآن فقط، وإنما يراد بها الرسالة التي القرآن تفصيلها.

رسالة الله هي التي فيها تبيان كل شيء

يقول ربنا عز وجل:

›وَيَومَ نَبعَثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدًا عَلَيهِم مِن أَنفُسِهِم وَجِئنا بِكَ شَهيدًا عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً وَبُشرى لِلمُسلِمينَ‹11

إذا تأملت هذه الآية تجد أن اللّه قال أنه أنزل الكتاب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تبيانا لكل شيء، أي أنه بين كل شيء.

إذا فسرت الكتاب بالقرآن لن تسلم من أن تكذب القرآن نفسه، لأن القرآن ليس فيه تبيان كل الدين، فأغلب الفرائض لم ترد مفصلة في القرآن، مما يؤكد أن الكتاب الوارد في الآية لا يعني القرآن.

أهل الرأي والملحدون ينطلقون من هذه الآية بعد أن يحرفوها، فيجعلون الكتاب بمعنى القرآن، فيقول الملحدون أن القرآن متناقض وقد أخطأ في هذه الآية حيث قال أن فيه تفصيل كل شيء، وهو ليس فيه بيان الصلاة رغم أهميتها.

أهل الرأي يقولون أن المقصود بهذه الآية أن في القرآن الأصول التي يقاس عليها، وهذا طبعا مناف لما ذكره ربنا حيث قال أن الكتاب تبيان كل شيء وليس إجماله.

كلا الفريقين انطلقا من منطلق فاسد وهو اعتبار الكتاب القرآن فقط، ليبرر ما سيقوم به من كفر صريح.

فالملحدون كفروا برسول اللّه وبالقرآن صراحة.

وأهل الرأي كفروا بهذه الآية فانتجوا مصادر للتشريع لتسد هذ النقص المزعوم في كتاب الله, ثم كفروا برسول الله حيث اتخذوا أئمة غيره.

إن هذه الآية حق مثلها مثل القرآن كله, والكتاب يعني الرسالة التي هي تبيان كل شيء فالصلاة والزكاة وكل شيء مفصل في الرسالة بشقيها, القرآن والسنة.

فحين نجد في القرآن وأقيموا الصلاة, نجد في السنة كيف نقيم الصلاة بكل تفاصيلها الدقيقة, فصدق الله وكذب المحرفون.

الرسالة هي التي فيها بيان ما اختلف فيه

يقول ربنا عز وجل:

‹وَما أَنزَلنا عَلَيكَ الكِتابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اختَلَفوا فيهِ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ›12

إذا تأملت هذه الآية تجد أن الكتاب لم ينزل إلا لغاية واحدة, وهي بيان ما اختلف فيه.

هذه الآية أيضا مما يظهر تناقض من قال أن المقصود بكتاب الله القرآن فقط, حيث أن القرآن هو مصدر اختلافاتهم, فكيف يكون أنزل لبيان ما اختلف فيه؟

من ذلك اختلافهم في الباء في قوله

‹... وَامسَحوا بِرُءوسِكُم ...›13

فقال بعضهم الباء للتبعيض, وقال بعضهم للالتصاق, واختلفوا.

هذا الاختلاف لا يمكن بيان الصواب فيه إلا بالرجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم, ومعرفة كيف مسح على رأسه.

مما يؤكد أن الكتاب الذي أنزل لبيان ما اختلف فيه هو الرسالة التي أرسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم, بشقيها القرآن والسنة وليس القرآن فقط.

شبهات وردود

يدعي البعض أن الكتاب تعني القرآن وذلك لسببين :

الأول أنه لم يرد في السنة تسمية كتاب الله لغير القرآن خاصة دون السنة.

والجواب على هذا أن القرآن يسمى كتاب الله فعلا ولكن هذا لا ينفي أن يكون الكتاب يطلق على الرسالة ككل التي القرآن جزء منها, مثل قول الحق سبحانه في سورة لنمل:

﴿طس تِلكَ آياتُ القُرآنِ وَكِتابٍ مُبينٍ﴾ [النمل: ١]

ففي هذه الآية أضاف العام "الكتاب" على الخاص "القرآن" وهذا كثير في القرآن يأتي لبيان أهمية الخاص, ولو كان القرآن هو الكتاب كما يدعون لكانت الآية تلك آيات القرآن الكتاب المبين فيكون الكتاب بدلا من القرآن, ولكن الآية ليست كذلك وميّزت بين القرآن والكتاب.

السبب الثاني ورود لفظ "قرآن" لوصف الكتاب مثل قوله سبحانه:

﴿ كِتابٌ فُصِّلَت آياتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِقَومٍ يَعلَمونَ ﴾[فصلت: ٣]

﴿ حم۝وَالكِتابِ المُبينِ۝إِنّا جَعَلناهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعقِلونَ ﴾[الزخرف: ١-٣]

إذاً الكتاب هو القرآن بدليل هذه الآيات.

والجواب على هذه الشبهة هو كون كلمة "قرآنا" تختلف عن اسم العلم "القرآن" فالمراد بها كونه يقرأ دوما, وهذا واقع فيما أنزل الله من القرآن والسنة حيث يكرر القرآن وتكرر السنة دوما والدليل على أن كلمة قرآنا المقصود بها الصفة لا اسم العلم كون الله وصف بها القرآن نفسه فقال أن القرآن قرآن في قوله:

﴿ وَلَقَد ضَرَبنا لِلنّاسِ في هذَا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ۝قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيرَ ذي عِوَجٍ لَعَلَّهُم يَتَّقونَ ﴾[الزمر: ٢٧-٢٨]

فتأمل هداك الله.

المراجع

1- العين المجلد 5 الصفحة 341 – 342

2- البقرة: ١٨٣

3- البقرة: ٧٩

4- البقرة: ٢١٣

5- النمل: ٢٨

6- آل عمران: ٦٤

7- البقرة: ١٧٧

8- البقرة: ٨٧

9- آل عمران: ٣

10- يونس: ٣٧

11- النحل: ٨٩

12- النحل: ٦٤

13- المائدة: ٦